الفصل الرابع: أدب الحرب والسلام

اقتضت ظروف الحرب العالمية الثانية أن تشهد الساحة الثقافية الأدبية لونًا جديدًا من الأدب اتسم بالحديث عن الحرب والسلام... فدبجت المقالات ونظمت القصائد حينئذ ودخلت المعركة؛ معركة الحرب والسلام.

***

دار الوجد والمجد

تحت هذا العنوان نظم الشاعر زكي مبارك قصيدة عصماء نشرها على صفحات جريدة البلاغ، وبعد ذلك ضمها ديوانه الثاني «ألحان الخلود» توزيع مكتبة مصر بالفجالة، وقدمها بكلمة نثرية تبدأ من صفحة ٦٥ وقال فيها:

لو عاش «شوقي» إلى أن شهد ما تعاني الإسكندرية من كوارث وخطوب لواساها بأطايب الشعر البليغ.

فإلى روحه في دار الخلود أهدي هذا القصيد:

بأهلِ إسكندريةَ بعضُ ما بي ... من الأحزانِ للثغر المصاب
أدار هواي ما قلبي بناسٍ ... هُيامي فوق أثباجِ العُباب
وهل ينسى أخو كرمٍ وعهدٍ ... رحيقَ الراحِ يُمزَجُ بالرُّضاب؟
فإن تكن الكوارثُ آثمات ... صببنَ عليك أسواطَ العذاب
فلن ينسى لك التاريخُ عهدًا ... ضحوكَ الوجه مرهوب الجنَاب

***

حَمَاك اللهُ يا دارَ التنادي ... إلى الهيجاءِ أو دارَ التصابي
ألم تمرح بساحتك الجوازي ... لَوَاعبَ في حِمى الأسدْ
ألم تُلْفَي مع الأقدار يومًا ... كتائب من لحاظٍ أو حِراب؟

---

(١) الجوازي: هي الظباء لاجتزائها بالعشب على الماء.

وكيــف يطيــبُ للــدنيا وُجــودٌ إذا هُــدِّدت ظلمًــا بــالخرابِ؟
وأيــن تجــولُ أفــراسُ المعــالي؟ وأيــن تـصول أحــلامُ الـشباب؟

***

عــروسَ البحــر، والــدنيا سـفينٌ تُــروَّع بالقواصــف والـضَّباب[1]
أعنــدك أن دارَ المجــدِ تنجــو على الأيـام مـن كُـرَب الـصِّعاب؟
أعنــدك أن فــي الــدنيا رياضًــا تــصان مــن الأفــاعِي والـذباب؟
عـروسَ البحـر، مـا هـذي الرزايا تُـصبُّ علـى بنيـك بـلا حـساب؟
أكنــت جنيــت، والــدنيا مجــالٌ لمفــروض الثـواب أو العقــاب؟
جمالــك فــاتنٌ، والحــسن ذنــبٌ لأهـل الحـسن فـي شـرع الـذئاب
فمـا شـكواك مـن ظلمـاءَ طالـت وتلــك جنايــة المجــد اللبــاب؟

***

عـروس البحـر، يـا مَهْـوَى فتـوني ويــا مَغْنَــى أمــانيِّ العِــذَاب
عُقلــتُ بأرضــك العــزَّاء عامًــا فكــان أعــزَّ عــام فــي شــبابي[2]
دخلتــك عانيًــا فــي أسـر ليـل أصــمِّ القلــب زنجــيِّ الإهــاب
فأقبــلَ نــورك الروحــي يــسري إلــى أرواحنــا مــن كــلِّ بــاب
رأى العَقَّــال أن نحيــا أســارى حياةَ السيف في سُدَف القِراب[3]

---

(١) القواصف: هي الرياح التي تثور في البحر. أما العواصف: فهي الرياح التي تثور في البر: (ألحان الخلود).

(٢) العزَّاء: هي الأرض الصلبة، وكان موضع الاعتقال في بقعة جرداء بناحية «سيدي بشر» قبل أن تصبح تلك الناحية من ملاعب الصيف.

(٣) العقال على وزن سجَّان: هو حارس المعتقلين. والسدف جمع سدفة بالضم: وهي الظلمة، والقراب بكسر القاف: هو الغمد.

فـلا نـدري لوجـه البحـر لونًـا سـوى الموهـومِ مـن لمـع الـسراب
ولا نقْتــات مــن زاد الأمــاني سـوى المظنـون مـن يـوم المـآب
فهـل سـمعَ الـشَّقِيُّ بمـا أفـاءَت علينــا إســكندرية مــن ثــواب؟
هَـديرُ البحـر كـان يعـجُّ عمـدًا ليطربنــا علــى بُعْــد المثــاب
وحَـبُّ الرمـل صـار لنـا مهـادًا مُطــرَّزةً بأزهــارِ الروابــي
فأمـسى الاعتقـال علـى اجتـواهُ رخِـيَّ القيـد مـأنوس الرِّحـاب[1]

***

عَـرُوسَ البحـر، حـدَّثني شـهودٌ بـأن الـشَّط صـارَ إلـى تَبـاب
فـلا غَيْـداءُ تخطـرُ فـي حِمـاهُ كرقص البدر من خلف السحاب
ولا صـبٌّ خَتُـورُ العهـد يمـشي علــى جَنباتــه مَــشْيَ الحُبــاب
ولا صــهْباءُ يحْــسُوها بنــوهُ وقـد قُبِـستْ مـن الـذهب المـذاب
إذا طافـتْ بهـم هـاموا فخفُّـوا لمقبــول المجانــة والــدُّعاب
وأمْـسَوْا والكواكِـب فـي عُلاهـا لهــم أسْــلابُ فتــكٍ وانتهــاب
سُـلافٌ صـانها «بـاكوسُ» عمـا يـشوبُ الـراحَ مـن إثـمٍ وعـاب[2]
ألـمْ يثقـل علـى حُكمـاءِ قـومِي وقــد عاقَرتهــا وِزْرُ اغتيــابي؟

***

أميـرَ الـشطِّ كنـتُ فـأين عهـدي برغـي الحسن في الشطِّ العُجاب
وأيــنَ رِمَالــهُ منــي وكانــتْ مناسِكَ صَبْوتي في كل (آب)[3]

---

(١) الاجتواء: البغض.

(٢) باكوس: هو إله الخمر عند اليونان.

(٣) آب: شهر أغسطس، وهو من أهم شهور الاصطياف.

إليهـا كـان حَجّـي واعتمـاري وفيهـا كـان خَتْلـي واختلابـي
فكيـف أذوقُ للـصَّبوات طعمًـا وعـن عرفاتهـا طـال اجتجـابي؟

***

نـدامَى البحرِ، سـوف أعـود يومًـا لأطفـئ مـا بقلبـي مـن لـؤاب[1]
نـشيدي فـي التـصوف كـان لحنًـا نقلـتُ صـداه عـن قَـصف العُبـاب
سُـواي يـرى الوجـود إن اجـتلاهُ سـطورًا ثاويـات فـي كتـاب
ويجلـوهُ لوجْـداني ورُوحـي إذا مـا شـئتُ إظـلالُ السحاب[2]
وهـل كانـت حيـاة النـاس إلا قلائـد صـاغها رَبُّ الرَّبـاب[3]
عـشقتُ البحرَ والـصحراء عـشقًا بـه طـال انـدفاعي وانجـذابي
أُطـلُّ علـى الفـضاءِ فتزْدَهينـي رِحـابٌ غارقـاتٌ فـي رِحـاب
وانظـر للوجـودِ فـلا أراه سـوى خمـرٍ تُعـاقَرُ أو رُضـاب[4]

***

أخلائـي هنالـك، حـدِّثوني حـديث (الثغـر) وانتظـروا إيـابي

---

(١) اللؤاب: العطش.

(٢) أجمل الشاعر في هذين البيتين معنى فصله في «ذكريات باريس» في بحث عنوانه «بين فصول الكتاب وآيات الوجود».

(٣) الرباب: هو ما دون السحاب؛ فالسحاب ربه، ورب السحاب هو البحر، ورب البحر هو الله. وللشاعر عقيدة صوفية تقوم على أساس «الحقيقة البحرية» وهي عقيدة لا يتسع لشرحها المجال؛ وقد تفتح أبوابًا من الجدل لا يطيقها أكثر الناس؛ لأنها تخالف ما اصطلح عليه الصوفية.

(٤) يريد الشاعر أن يقول: إنَّ الوجود كله جميل حتى ليحسبه رشفات من خمر أو رضاب.

أفـوقَ رُبوعـه غامـتْ سـماءٌ ... مؤَجَّجـةٌ بأقبـاسِ اللُّهـاب[١]
ومـا القـومُ الـذين عَـدَوْا عليـهِ ... كعـدوان الـذباب علـى الـشراب؟
أكـانوا جِنَّـةً صُـمًّا فعـاثوا ... بـه عَيْـثَ الأراقـم بالوِطـاب[٢]
أكـان (النـسر) فـي التَّحليـق أدْنـى ... إلـى الإسفاف مـن ذاك (الغـراب)؟
نِطـاحٌ كُلُّـهُ سَـفَهٌ ولـؤْمٌ ... ولـو كَـرِهَ المُـصانع والمحـابي

***

أحـقٌّ أن مَغْنَـى (الثغـر) أقـوى ... وأقفـرَ مـن أحاديـث الـصحاب؟
فـلا «النـشارُ» يـسأل غيـر صـاحٍ ... ولا «شـيبوب» يحلـم بـالجواب؟
«أبـو شـادي» أفـاقَ، فمَـن بَـشيري ... برجـعِ الأمـنِ للثغـر المَهـاب[٣]
وكيـف يَعـيشُ رُوحٌ كـان أُنـسي ... وإنْ ألـفَ اللَّجاجـةَ فـي الغِـضاب؟
أكـاتِمُ حبَّـهُ قلبـي وأمـضي ... فـأُغلِنُ بُغـضه عنـد العتـاب
هـو الـدنيا: وقـد جُنَّـتْ فـصاغت ... رحيـقَ هـواه مـن شـهدٍ وصـاب

***

(١) اللهاب بالضم: هو اللهب أو اللهيب.

(٢) الأراقم: هي الحيات الرقط. والوطاب مفردها وطب: وهي أوعية اللبن، والحيات تحب اللبن إلى حد الجنون، والعرب يصفونها بالصمم ليبالغوا في قدرتها على الإيذاء؛ وهو الوصف الذي أضافه الشاعر إلى أولئك الجن العائثين.

(٣) المهاب بفتح الميم: هو المكان الذي يكثر فيه التهيب والخوف. وإفاقة الدكتور أبي شادي تستحق التنويه، فقد سقطت قنبلة على بعد خمسمائة متر من داره ولم يصب بسوء، وتلك أول مرة تظهر فيها كرامة «أبوللون»!!.

بأهـل إسـكندريةَ بعـضُ مـا بـي ... مـن الأحـزان للثغـر المُـصاب
سـمعتُ حـديثَ نكبـتهم فأمـسى ... فـؤادي فـي انـصداعٍ وانـشعاب
ملائـك مـن أديـم الخلـد صِيغُوا ... لِيـوم الوجـدِ أو يـوم الغِـلاب
أعـزَّ البحـرُ أنفـسهم فعـزُّوا ... فهـم قـوم اعـتلاءٍ واصـطخاب
هُـمُ الحـراسُ للـوطن المفـدَّى ... مـن العـادين أبنـاءِ القُـلاب[1]
فكيـف تبـدَّلوا وأدال مـنهمْ ... مُديل البأس من وكر العُقاب[2]
تـساقُ إلـيهمُ الأقـواتُ، هـلا ... تـساق إلـيهمُ عُـددُ الحِـراب؟
أغيثـوهمْ بـسيفٍ لا بـزادٍ ... فهـم خَلَـفُ القساورة الصلاب[3]
أمـدُّوهم، إذا شِـئتم، بجـيش ... وقـاح الوجـه منـزوعِ النقـاب
فمـا حفـظ الـديار سـوى حـسامٍ ... بـه ظمـأٌ إلـى يـوم الـضِّراب

***

أجِبْ «عبدَ القوي»[4] وأنت شهمٌ ... صـريحٌ لا يـراوغ فـي الجـواب
أأنـت تـرى «المخـابئ» واقيـاتٍ ... وهُـنَّ أذل مـن غـار الـضِّباب؟
ومـا شـرفُ الفتـى وقـد استنامت ... جوانحُـه إلـى مثـوى الهـوابي[5]
لنـا مـاضٍ نَـسيناهُ فـضِعنا ... ضَـياعَ التِّبـر فـي جـوف التـراب

---

(١) القلاب بضم القاف: داء يعصر القلب.

(٢) العقاب بضم العين: طائر من الجوارح.

(٣) القساورة: الأسود.

(٤) هو المهندس الأديب عبد القوي أحمد باشا وزير الوقاية المدنية.

(٥) الهوابي: أتربة القبور.

لقد كنَّا، وكنا، ثم كنا ... أداةَ الفتك من ظُفْرٍ وناب
ركزنا الرعبَ في مُهج الضواري ... فكيف تَرُوزنا مهجُ الذئاب؟
لوادينا القوي عنَتْ وُجوهٌ ... عززن بالانتساب والاكتساب
ألمْ ندفِنْ بوادينا قُرُومًا ... أرادوا الشرب من أمواه (حابي)[1]
فكيف تُكولُنا عن ردع قوم ... لئام البغي منكودي الإصاب[2]
هُمُ ظنوا الكنانة زاد يوم ... كظن النمل في نسف الهضاب
فإن فازوا فسوف نكون منهم ... مكان البحر من لهب الضوابي[3]
وسوف نظل نحن -كما فُطرنا- ... أُباةَ الضَّيم أحرار الرقاب
عركنا الدهر جيلًا بعد جيل ... وكابَدْنا الألوف من الصعاب
فما هُنَّا على الأقدار يومًا ... ولا أمست بوارقنا نوابي[4]
ألم نُشرقْ على الشرق المعنَّى ... فندفع عنه آصار الضباب[5]
ولولا جدنا في الشرق صارت ... بقاياه العزاز إلى الذهاب
بنا وثقتْ شعوبٌ لم تواجِه ... بروق الغرب إلا في ارتياب
بنا اسْتَهْدَتْ بصائرُ لم نَرُضها ... خداعًا بالمواعيد الكذاب
كدأبِكُمُ وقد مرنتْ نهاكمْ ... على ستر الخيانةِ بالخلابِ[6]
أكان العلمُ في عالِي سناهُ ... ذريعة الاسترقاق والاستلاب

(١) حابي: هو اسم النيل عند قدماء المصريين، والحابي: هو الوهاب.
(٢) الإصاب مصدر أصاب: كالإقام مصدر أقام، وفيه إعلال بالحذف.
(٣) الضوابي: النيران.
(٤) البوارق: السيوف.
(٥) الآصار: الأثقال.
(٦) الخلاب بالكسر: هو الخداع.

أرونـــي منَّـــةً أســـلفتُموها ... بـــلا نهـــبٍ يـــرادُ ولا اغتـــصاب
طلائـــعَ كـــان علمُكُـــم ليـــومٍ ... يهـــونُ بجنبِـــه يـــومُ الحـــساب
ولـــم يـــكُ علمنـــا إلا نظيـــرًا ... لـضوء الـشمس يزهـد فـي الثـواب
أأنـــتمْ تُفتَنـــون بمـــا ملكـــتمْ ... مـــن العـــدَد النـــذيرةِ بـــالخراب
ولا نُزْهَـــى بـــآراءٍ صِـــحاحٍ ... هـي المنـشود مـن فـصل الخطـاب
فـــإن تخْلـــد مآثِرنـــا وتـــسلم ... علـى التـاريخ مـن شُـبَه المعَـاب
فـــذاك لأنهـــا آثـــار قـــومٍ ... كـــرامِ الـــروح أطهـــارِ الإهـــابِ
لنـا الخلـدُ الـذي لـن ترزقـوهُ ... ولـــو أوتِيـــتمُ مُلْـــكَ الـــسحاب
فخبُّـوا فـي المطـامع كيـف شـئتمْ ... وخوضـوا القاتمات من العقاب[1]
ورُودوا الأرض في شرقٍ وغربٍ ... بكبـرِ الليـث أو زهـوِ الغـراب
وصـــولوا آثمـــين بنـــاء حـــربٍ ... تحيـلُ المزهـرات إلـى يبـاب[2]
فـسوف تُـرَوْنَ بعـد مـدى قـصيرٍ ... فـــرائسَ للمحـــاقِ وللـــذهاب

***

بأهـل إسـكندريةَ بعـض مـا بـي ... مـــن الأحـــزان للثغـــر المـــصاب
أتلـــكَ قيامـــةٌ قامـــتْ فـــدكَّتْ ... حـــصون البـــأس مـــن تلـــك
فمـن كهـلٍ سـديدِ الـرأي يُمـسِي ... لوقـعِ الهـولِ مفقـودَ الـصواب
ومـــن رشَـــأ تـــصيِّرُهُ الرَّزايـــا ... وقِيذَ الشيب في شرخ الشباب[4]

---

(١) العقاب: جمع عقبة بالتحريك، وهي الطريق الصعب في الجبل.

(٢) اليباب: الخراب.

(٣) الطوابي: القلاع، وهي كلمة تركية الأصل.

(٤) الوقيذ: المطعون.

ومن عذراءَ يلفظها حِماها ... فتخرجُ للبلاءِ بلا نقاب
قوارعُ لم تقعْ إلا بأرضٍ ... يقارعُ أهلها وَقْدَ الحرابِ[١]
فما آثامُ أهلِ (الثغر) حتى ... يُشنَّ عليهمُ ويلُ العذاب؟
مضت زُمرٌ إلى الأرياف منهم ... مُضِيَّ الأُسْد من غابٍ لغاب
فكيف استقبلوا -بعد ارتفاهِ- ... جشيبَ العيش في تلك الشعاب؟
أمِن بعد الحشايا ناعماتٍ ... يكون بساطُهم مَتْنَ التراب؟
إلى جَلَواتِهِمْ في الصيف كانت ... تُزفُّ أطايبُ الحسن اللُّباب
وفي داراتهم كان التنادي ... إلى الصَّبوات في الشَّط الرَّغَاب[٢]
فكيف مضَوا حيارَى لم يثوبوا ... إلى زاد يعدُّ ولا ثياب؟
وكيف غدوا بهذا الصيف صَرْعَى ... لمشئوم الشتاتِ والاغتراب؟
كذاك العيشُ بؤسٌ بعد لين ... وشهدٌ يُستَقَى من بعد صاب
ومن عشق السُّلافة في صفاها ... أحب لحبها رنَقَ الصباب[٣]

***

عروسَ البحر، نسرف إن رأينا ... حياتَك في المزاح وفي اللِّعاب[٤]
وكيف وفي معاهدك الخوالي ... تسابقت العقول إلى الوثاب؟
بكل محلَّةٍ وبكل أرضٍ ... مآثرُ منكِ طيبة النصاب[٥]

---

(١) الحراب: المحاربة.

(٢) الرغاب بفتح الراء: الفسيح.

(٣) الصباب بضم الصاد: بقية الكأس. والرنق: الكدر.

(٤) اللعاب: الملاعبة.

(٥) النصاب: الأصل.

وما روما وآثينا إذا ما تباري الفاخرون بالانتساب؟
منارَ العقل كنت بلا امتراءٍ ونارَ القلب كنت بلا ارتياب
بكي التاريخ من عهد لعهد مُصابَ العلم في (دار الكتاب)(١)
فهل كانت بدائعها لقومٍ أجانب عن مرابعك الرّحاب؟
بَناكِ إسكندَرٌ فيما بَناهُ كذلك قِيلَ رَجمًا بالمغاب(٢)
ولو أصغى أُولو الألباب يومًا لِهَمْس الوحي في تلك الرَّوابي
لآمَنَ فتيةٌ منهم برأيٍ يَخالُك صادقًا «بِكرَ العُباب»
وهل «فينوسُ» عندَ مُربِّيها سوى «راقودَ» في أحلام
لـ«كِيمي» أنت، يا دارَ التنادِي إلى الهيجاء أو دارَ التصابي(٤)

---

(١) دار الكتاب: هي مكتبة الإسكندرية المشهورة في التاريخ.

(٢) المغاب: هو الغيب، ومعناه الظن والتخمين.

(٣) يريد الشاعر أن يقول: إن الإسكندرية كانت موجودة قبل الإسكندر بأزمان طوال، وإنما سمي أحد أحيائها باسمه، فغلبت التسمية على مر الزمان، واسمها القديم راقود. وهنا التفت الشاعر التفاتة خيالية، فجعل «راقود» نظيرة «فينوس»؛ و«فينوس» هي ربة الجمال عند القدماء وقد ولدت على شاطئ البحر، وكذلك ولدت «راقود»، وذلك معنى قوله: إنها «بكر العباب». ومن المؤكد أن «راقود» هي أقدم المدائن البحرية؛ لأن طبيعة ذلك المكان من شواطئ مصر توجب أن يكون أهلًا للحضارة والعمران.

(٤) «كيمي»: هو اسم مصر عند أهلها القدماء، «كيمي»: معناه السواد، وسميت «كيمي» لغلبة هذا اللون على أرضها، ومن «كيمي» جاءت لفظة «الكيمياء» لشهرة المصريين بالتفوق في الاختبارات الكيميائية.

لـ«كِيمي» أنـت مـن أيـام نـوح تَوارثَـكِ ابـنمٌ عـن خيـر آب[١]

***

مَضى عهدُ القياصر في انزعاج بـأرضِ إسـكندريةَ وانقـلاب
بـلادٌ لـم تكـن إلا مجـالًا لمِـشبُوب الـضِّيال والاحتـراب
بجمْـر الثـورة الحمـراءِ يُغـذَى بنوهـا لا بـزادٍ أو شـرابِ
وجـاءَ الفـتحُ فانقـادوا لقـومٍ مـساكنُهم بـصهوات العِـراب[٢]
هـو الإسـلامُ طَهَّـرهم فأضـحوْا كماءِ المُزْن في شُعَب اللصاب[٣]
فهل يَدري المؤرخُ كيف صاروا طلائـع للجهـادِ وللغِـلاب؟
علـيهمْ عَـوَّل الإسـلامُ فيمـا أرادَ مـن المغاربـة الـصِّلاب
فـأموا الغـربَ يحرسـهم تقـاهم وقـد مشت الملائك في الركـاب
وحلُّـوا عـادلين بـه كرامًـا حُلـولَ الغيـث بـالبُقَع الجِـداب
فلمـا أن هـوتْ شـمس المعـالي بأنـدلسٍ ولاذت بالحجـاب
تقـاطرَ أهلهـا يبغـون حـصنًا يقـيهم شـر أيـام التبـاب

---

(١) «الآب» بالمد: هو «الأب»؛ وهذا المد جاء لعلة صرفية هي تعويض الحرف المحذوف وهو الواو، وهو يعوض في لغة التخاطب بتضعيف الباء فقول النصارى «باسم الآب» صحيح من الوجهة اللغوية.

(٢) «العراب»: الخيل العربية، ومساكن العرب في أيام بأسهم كانت فوق صهوات الخيل.

(٣) «اللصاب» جمع لصب، بكسر اللام: وهو الشعب الضيق في الجبل، وهو يحفظ الماء من الأقذاء.

إلى جفن الحِمى بالثغر عادوا كما عاد الجُراز إلى القِراب[١]
أتاريخًا يحبّره قصيدي لماضي «الثغر» في عهد الشباب؟
وما الشمس المضيئة إن حكتها لرائيها خيوط من لُعاب؟[٢]

***

عليك إسكندريةُ أجَّ حزني فطار تجلدي وهَوَى صوابي[٣]
إذا فكرتُ فيك غَلَتْ دمائِي وآذنَ جمر حِقدي بالتهاب
ألا سيفٌ أجرِّدُهُ وأمضي لأدفع عنك عادية الذئاب؟
ألا جيشٌ قويُّ البطش ضار يذيق عِداك أكواب العذاب؟
سأصمت كارهًا، والصمتُ حينا يُعَدُّ من البراعة في الجواب

أول أغسطس سنة ١٩٤١

***

(١) الجراز بالضم: هو السيف القاطع، والشاعر يشير إلى حقيقة تاريخية؛ وهي أن فريقًا من الجيش الذي فتح إفريقية ثم دخل الأندلس كان من الإسكندرية، فلما غاب نجم الأندلس لاذَ كثير من أهلها بالإسكندرية، فكثير من العائلات بالثغر يرجعون إلى أصول أندلسية ومغربية، وذلك سر الشراسة الغالبة على طباع الإسكندريين.

(٢) لعاب الشمس: شعاع ينحدر من السماء عند الظهيرة، والمراد أن التاريخ لا يصور الحقائق إلا بمقدار ما يصور اللعاب حقيقة الشمس.

(٣) أج الحزن: استعر واضطرم.

مع الدكتور طه حسين[1]

المعروف أن بيني وبين الدكتور طه «ما صنع الحداد» وإن كنت أجهل المراد من هذه العبارة المصرية، ولكن ما صنع الحداد لا يمنع من لقاء الدكتور طه حسين؛ لأنه جاري بوزارة المعارف، والجيران يتلاقون كارهين أو طائعين، وفي ذلك التلاقي يجري الحديث حول محصول الحركة الأدبية في هذه الأيام، وهو يقرأ جميع ما تنشر المجلات ليعرف إلى أي مدى ينتهي جموح بعض الكاتبين!

- أنت يا دكتور زكي تتجاهل أن الدنيا في حرب.

- وماذا يصنع الكاتب في أيام الحرب، يا سيدي الدكتور؟

- يكتب ثم يطوي ما يكتب إلى أن تجيء أيام السلام.

- وإذا نشر ما كتب؟

- يعاقب بالصمت.

- ولكن الكتابات الأدبية كالود الصحيح، وهو يُطلب في جميع الأوقات.

- هنالك أوقات تكون فيها الصحة ضربًا من الاعتلال، ويكون الفوز لأهل الأمراض.

---

(١) مجلة الرسالة: ١٩٤٢/٥/٢٥.

- وهل وصلنا إلى هذه الغاية يا سيدي الدكتور؟

- لم نصل إلى هذه الغاية، ولكني أخشى عواقب هذه الحال.

- وما هذه الحال؟

- هي ضعف الأعصاب عند جميع الناس، بحيث يجوز الضجر من أجمل الأشياء وأشرف المعاني.

- ولكن المفكر مسئول أمام قرائه في كل وقت، وفيهم من يجهل أن الدنيا في حرب.

- من واجب المفكر أن يعلم قراءه ما يجهلون.

- وهذا ما أصنع يا سيدي الدكتور.

- هل علمتهم أن الدنيا في حرب؟

- قصصت عليهم قصة الطائر الغريب.

- وما قصة الطائر الغريب؟

- هو طائر يساير الأنوار المبثوثة فوق الشواطئ.

- لأي غرض؟

- ليعرف مسابح الأسماك فيهديها سواء السبيل.

- الناس يقولون غير ذلك!

- وماذا يقولون؟

- يقولون: إن الطائر يضع المصابيح ليجتذب الأسماك إليه.

- وماذا أصنع إذا كانت الطبيعة ترى النور سر الجاذبية؟

- ومن أجل هذا تطالب بحرية الفكر والرأي؟

- هو ذلك!

- اكتم هذا الحديث يا دكتور زكي، ولا تخبر أحدًا بأنك حاورتني في الأنوار والظلمات.

- سمعًا وطاعة، يا سيدي الدكتور، فلن أنشر هذا الحديث إلا بعد انتهاء الحرب.

***

امتحان جديد:

تقوم الشواهد في كل يوم على أن الحكم للسيف والمدفع، وأن المعاني الروحية في سبيل الزوال، فكيف نلقى القراء في حدود ما عودناهم لعهد السلام؟ وكيف نناضل لحفظ سلطان الرأي في زمن تضعضعت سلطنة الرغيف؟

هل نترك معالجة المشكلات اليومية وننصرف إلى معالجة المشكلات التاريخية؟

هل نتحدث عن جبل واق الواق في أساطير الأولين؟ لا هذا ولا ذاك، فسترون كيف نخرج من امتحان هذا الزمان بأمان.

***

يقال ويقال:

يقال: إن المؤلفات الأدبية ظفرت في هذه الأيام برواج لم تعرفه من قبل؛ ويقال: إن السبب في هذا الرواج هو نفرة العقول من سخف الدعايات الأجنبية.

ويقال: إن الحرب علمت المصريين أشياء وأشياء، ولكنها غفلت عن تعليمهم معنى التضامن الوطني، فجهلوا التعاون في توفير الأقوات.

ويقال: إن وزارة الشئون الاجتماعية قضت أعوامًا في تعريف الصناع والزراع بأنهم تعساء، ولم تعلمهم كيف يدفعون التعاسة بشرف النضال في المطالب الحيوية.

وسمعت ثم سمعت أن الدولة ستحرم الرياء الاجتماعي تحريمًا قاطعًا.

وحدثني من أثق بصدق روايته أن الميسر سيكون من المحرَّمات، وأن السهر في المنازل سيُمنع بعد صلاة العشاء.

صلاة العشاء؟... صلاة العشاء؟

يظهر أنني انتقلت إلى الحديث عن أهواء التاريخ!

***

موقعة العلمين[1]

العَلَمين: اسم بقعة تقع في الطريق بين الإسكندرية ومرسى مطروح، وهي مثنى عَلَم، وقد صارت بفضل حرب الصحراء الغربية أشهر من نار على عَلَم أو على عَلمين!

والذي يراجع أخبار الصِّيال بين قوات الحلفاء وقوات المحور في الصحراء يعرف أن تلك القوات لم تقف وقفة أطول من وقفتها في العلمين، فهل كانت المقادير أرادت أن يكون لتلك التسمية هذا المصير فتكون تلك البقعة مكان الصراع بين العلم المهاجم والعلم المدافع؟

اللهم حوالَيْنا ولا علينا!

***

(١) مجلة الرسالة بتاريخ ١٩٤٢/٧/٢٠.

ألوان الموت[١]

لك أن تقول: ألوان الموت، كما تقول: ألوان الطعام، أصناف الشراب، ومن حقك أن تختار لون الموت؛ لأنه فنٌّ من الفنون، أو صنفٌ من الصنوف، أو «ضربٌ» من الضروب، ولعل من واجبك أن تفكر في اختيار لون الموت؛ لأن ذلك يشهد بأنك من الأحياء. وهل يفاضل المرء بين لون ولون إلا وهو في حيوية ذوقية أو روحية تضيفه إلى أكابر الفنانين؟

ولتوضيح هذا المعنى أسوق الحادثة الآتية، وقد وقعت في مساء اليوم السادس من هذا الشهر الميمون:

قُبَيْل الغروب هبَّت عاصمة عنيفة، عاصفةٌ كادت تنقل إلى داري جميع رمال الصحراء، جزاءً بما صنعتُ من التغني بإشراف داري على الصحراء!

وفي ثورة تلك العاصفة يترنم الهتَّاف، فأسمع صوت المسيو دي كومنين[٢] يدعوني إلى سهرة تدور فيها أكواب الحديث، وهو لا يقدم لأضيافه غير أكواب الحديث؛ لأن العقل نهاه عن الشراب قبل أن ينهاه الطبيب.

---

(١) أكتب هذه الكلمة إجابة لاقتراح الأستاذ إبراهيم والي.

(٢) المسيو دي كومنين هو رئيس البعثة العلمانية الفرنسية في مصر... وكان مديرًا لمدرسة الليسية الفرنسية المصرية بمصر الجديدة أيام زكي مبارك.

وما كادت العاصفة تسكن حتى سلكتُ الطريق إلى ذلك الصديق، وهو طريقٌ لا يسلكه عابر في ليلة ظلماء إلا إذا كان على ميعاد مع حبيب.

كان المسيو دي كومنين في توحد الليث، فقد قضت ظلمات الأيام الأخيرة بأن يقرَّ الناس في بيوتهم، فلا يسمر صديق مع صديق... ولا تسأل كيف طابت نفسي حين عرفتُ أنني السمير الوحيد في ذلك المساء، مع رجلٍ صيغَ روحه من لباب الضياء.

كانت غابة الليسيه في تلك الليلة تكابد الشق إلى من يتنقل بين أشجارها من وقت إلى وقت؛ ليُشعرها بأن في الوجود أرواحًا لم تشغلها مزعجات الحوادث عن الاستماع للأغاريد المطوية في ضمير الحفيف... وهل تصمت أشجار مصر عن التناجي بالحفيف في أي زمان؟

تحدثنا بجانب كل شجرة، وسلمنا على كل مكان، حتى المكان الذي أوصى المسيو دي كومنين بأن يدفن فيه، بعد العمر الطويل العريض.

وطال الحديث حتى استغرق أكثر من خمس ساعات، فاستأذنت في الانصراف، بعد أن شكرت للمسيو دي كومنين لطفه البالغ في إمتاع روحي وعقلي بذلك الحديث.

ويهتف هذا الصديق على السائق ليوصلني بالسيارة إلى داري، فلا يجده، وينادي الحارس ليصل جناحي بضع خطوات، فيعرف أنه يرابط في ناحية نائية، فيعلن أسفه على أن أسير وحدي في ذلك الظلام المحفوف بالحتوف، ولكنني أطمئنه فأقول: إني لا أعرف ولا أُصدق أن في الدنيا رجلًا أقوى مني، فليجرب اللصوص حظهم في مصاولتي، إن كان في

«مصر الجديدة» لصوص غير سُرَّاق القلوب، وأنا قد نجوت من المعاطب الوجدانية في مصر الجديدة، فما خوفي على حبيبي وقد نجا قلبي؟!

كان الطريق موحشًا أعنف الإيحاش، وكان الليل كأنه الليل!

طاخ، طاخ، طاخ!

والتفت فإذا المدافع تنطلق من كل صوب، ولم يسبقها نذيرٌ من صفارة أو بوق، وانظر فأرى لهيبها ودخانها يثوران فوق رأسي، فأسرع بالدخول في بيت بلا أبواب، بيت لا يزال في مهد البناء، والمصريون لا يكفون عن البناء ولو ارتفعت تكاليفه إلى عشرات الأضعاف.

طق، طق، طق!

والتفت مرة ثانية فأرى الأخشاب التي تحمل السقف مهددة بالسقوط، فأقفز إلى الفضاء، وقد اخترت لون الموت، وللموت ألوان: رأيت الموت بشظية مدفع أفضل من الموت بسقوط تخشبية، كما أن الموت بالبطنة أفضل من الموت بالجوع!

ثم نظرت فرأيت الضرب ابتعد، فهو ضرب طيارة إنجليزية تطارد طيارة ألمانية، وقد أفلح الضرب فسقطت الطيارة المطاردة عند الكيلو رقم ٣ بطريق السويس، وكفى الله رأسي شر الهلاك، وضاعت الفرصة على أعدائي، فلم يحبروا المقالات الطوال في: «مصرع الملاكم الأدبي»: والمستميت لا يموت، كما قال الحكماء!!

أفي هذه الأيام نقرأ ونكتُب، ونحاسب هذا الشاعر، ونصاول ذلك الكاتب؟

نعم، ثم نعم... فليحاول الدهر بأحداثه وخطوبه زعزعة الفكر الثاقب والقلم البليغ!

***

النور أسرع من الضجيج[1]

أضاءت على حين غفلة أضاءت آفاقُ مصر الجديدة، وأضاءت ثم أضاءت؟ فقلت له: حتى هذه اللحظة أُطلقت ثلاثة مدافع؛ فقال: ومن أين عرفت؟ فقلت: من هذه الومضات؛ فقال: ولكني لم أسمع ضجيج المدافع؛ فقلت: ستسمع بعد لُحَيظات، وستؤمن بأن النور يسبق الضجيج.

فيا ناشدي الشهرة باسم الأدب، تذكَّروا ثم تذكروا ... تذكَّروا أن من يواجه الأدب والحياة بلا قلب وبلا روح وبلا نور، فلن يكون له من مجد الأدب وشرف الحياة نصيب ولا خَلاق.

النور أسرع من الضجيج؛ لأنه أرق وألطف، وأقوى وأغلب، فاستعينوا بحرارة أرواحكم، قبل أن تستعينوا بجهارة أصواتكم، واعلموا أن النور وليد النار، ون جوهر الفكر المتألق فيه أصالة حيوية لا يدرك مداها غير أرباب القلوب.

ومن أجل هذا كان الاضطهاد أعجز من أن يخمد حيوية الأديب؛ لأن الأدب نور، ولأن الاضطهاد ضجيج، والنور أقوى وأسرع من الضجيج.

ثم ماذا؟

إن وضعت أصابعك في أذنيك، فقد حجبت عن سمعك ما تحب وما لا تحب من الأصوات، وإن أغمضت عينيك، ثم عصبتهما بمنديل

---

(١) مجلة الرسالة: ٤٢/٧/٢٧، العدد ٤٧٣.

سميك، فستحس النور عيناك، برغم ذلك الحجاب، أو برغم ذينك الحجابين؛ لأن النور أقوى وأسرع من الضجيج.

فيا أعداء الأدب، متى تعقلون؟!

سنضيء قبوركم إن اعتصمتم منا بظلمات القبور؛ لأن من واجب النور أن يمزق الظلمات... وسوف تعلمون!

محمد زكي مبارك

العدد: ٤٧٣، مجلة الرسالة، ١٩٤٢/٧/٢٧

***

الحديث ذو شجون

مكانة الأديب في الجهاد[1]

اقترح أحد النواب المحترمين إحياء ذكرى «شوقي» بإقامة تمثال له في أحد شوارع القاهرة، وتلك التفاتة لطيفة تدل على قيمة الشعر في أنفس بعض النواب.

ولكنَّ أديبًا فاضلًا تعقب هذا الاقتراح في جريدة (الدستور) فقال: يجب أولًا إقامة تمثال لمحمد فريد، وتمثال لمحمد عبده، وتمثال لقاسم أمين، قبل أن يقام تمثال لأحمد شوقي أو حافظ إبراهيم.

ولا بأس بهذا الكلام، ولكن الأديب الفاضل علَّله فقال: نحن في عصر السيادةُ فيه للشجاعة والبأس، والعبادةُ فيه للبطولة والأبطال، لا للفن والجمال، وكل مقتحم ميدانًا، وداك سورًا، ومنتزعٍ نصرًا، مقدَّم على من يجلس فوق رابية آمنة؛ ليرسل من قيثارته ألحانًا مشجية.

ومعنى هذا التعليل أن أمثال محمد عبده ومحمد فريد كانوا جماعة من المجاهدين، وأن أمثال أحمد شوقي وحافظ إبراهيم كانوا جماعة من المغنين!

ومن يعش في مصر ير العجب، وإلا فكيف يجوز القول بأن صورة الشاعر هي صورة «من يجلس فوق رابية آمنة؛ ليرسل من قيثارته ألحانًا

---

(١) مجلة الرسالة: العدد ٤٨٢ بتاريخ ١٩٤٢/٩/٢٨.

مشجية»؟ وكيف يجوز القول بأن الشعراء ليسوا إلا جماعة يسبحون للفن والجمال، ولا صلة لهم بالبطولة والأبطال؟

إن هذا الناقد لا يعرف كيف يحيا الشعراء، ولا يفهم من الشعر إلا أنه غناء، والأدب عنده متعة ذوقية يلهو بها الفارغون من أهل العبث والمجون.

فمتى يعرف أهل مصر أن حامل القلم هو الوطني الأول، والمجاهد الأول، وأن معاني البطولة تعتلج في صدره قبل أن تعتلج في صدور القادة والزعماء؟

وما أساس البطولة الحقيقية عند أمثال: محمد فريد ومحمد عبده وقاسم أمين؟

أساسها الفكر والبيان، ويجب حتمًا أن نضيف هؤلاء إلى الأدباء قبل أن نعدهم زعماء، فما ارتفعوا إلا بالفكر المُشْرق والبيان الجميل.

وحكاية دك الأسوار واقتحام الميادين وانتزاع النصر تحتاج إلى شرح:

فهل من الحق أن الأديب لا يدك أسوارًا ولا يقتحم ميادين؟

إن الأديب يقضي عُمُره في جهاد ونضال وعراك مع الدنيا والناس، ومع الأوهام والأباطيل والأضاليل، وما شرَّق مشرِّق أو غرَّب مغرِّب في دعوة وطنية أو اجتماعية إلا على هدى من وحي الأديب؛ ولا استبسل جبان، أو استقتل شجاع، إلا بتحريض من عبارة فاه بها شاعرٌ أو كاتبٌ أو خطيب.

في أعقاب الحرب الماضية ظهر كتابٌ فرنسي اسمه: La Barbarle All وهو كتابٌ أقيم على أساس القول بأن الوحشية الألمانية ترجع إلى إيحاء من شعراء الألمان ومفكريهم في القرن التاسع عشر، وأن السيوف تتلقى الوحي عن الأقلام في تلك البلاد.

وقيل هذه القولة الفرنسية في تعليل الوحشية الألمانية، قال أسلافنا منذ أزمان طوال: إن أبياتًا من شعر عمر بن أبي ربيعة نقلت قلب هارون الرشيد من مكان إلى مكان؛ فصنع بالبرامكة ما دوَّنه التاريخ بإسهاب.

وإلى الأدب العربي يرجع الفضل في تأريث البطولة العربية، وكذلك حظ جميع الآداب في جميع الشعوب.

حين تزاور الرؤساء من الإنجليز والأمريكان بعد انتصار الحلفاء في الحرب الماضية لم يجدوا عبارة تفصح عن الألفة بين الأمتين أفضل من العبارة التي تقول: بأن لغة شكسبير هي الرباط الوثيق بين الإنجليز والأمريكان.

فهل سمعتم أن شكسبير دك أسوارًا واقتحم ميادين؟

ومنذ أسبوع نقلت البرقيات أن المسيو هريو رد وسام «اللجيون دونير» إلى المشير بيتان[1] -كان تلقاه من كليمنصو العظيم- لأن حكومة ڤيشي منحت هذا الوسام لضابطين يحاربان في صفوف الألمان، فعمن تلقى هريو هذا الوحي الرائع، الوحي الذي يأبى على الضمير الفرنسي أن

(١) المشير باللغة العربية: هو الماريشال باللغة الفرنسية.

يستبقي وسامًا يُهدى إلى من يحارب في صفوف الأعداء، ولو أصبحوا بحكم الضرورة حلفاء؟

هذه التفاتة أدبية لا سياسية، والأدب يوحي معاني تنفر منها السياسة، بحيث يجوز الحكم بأن الأدباء أشجع من السياسيين، وما مُدح سعد زغلول بأفضل من النص على أنه كان خطيبًا وطنيًا لا سياسيًا، كما قال الأستاذ كامل بك سليم.

التفاتة المسيو هريو التفاتة أديب، وكان هريو في مطلع حياته أستاذ الأدب الفرنسي بجامعة ليون، وكان يعاب عليه الإسراف في شرح أصول الغزل والتشبيب، فلم يكن يرتاد محاضراته بجامعة ليون غير عرائس ليون.

ثم تحولت العواطف الوجدانية عند المسيو هريو إلى عواطف وطنية، وهل كانت خطبه في مجلس النواب الفرنسي إلا روائع من الأدب المضمخ بعبير الروح؟

ولم يقف الأدب بالمسيو هريو عند الوطنية المحلية، بل سما به إلى رعاية اللغة الفرنسية في البلاد الأجنبية، فرأس جمعية المسيو لاييك رياسة حقيقية لا صورية، وأمدها بما استطاع من الوقت والمال.

عتب عليه المسيو بينار في المؤتمر الذي عُقد في يوليه سنة ١٩٣٣ خُلف الوعد بحضور افتتاح الليسيه فرانسيه في حلب، فاعتذر بأسلوب لن أنسى وقعه في نفسي، اعتذر بأنه يبيت في القطار ثلاث ليال من كل أسبوع، ثم أعلن استعداده لدفع النفقات التي توجبها الدعوة لنشر اللغة الفرنسية في البلاد الأجنبية؛ فهل تصدر هذه الأريحية إلا عن أديب؟

وفي ذلك اليوم دعوته لزيارة القاهرة فقال في حماسة: سنلتقي هنالك يا صديقي.

وقد برَّ بالوعد فحضر لافتتاح الليسيه فرانسيه بمصر الجديدة في سنة ١٩٣٨؛ ولكني ما رأيته ولا رآني، فقد كنت في بغداد، عليها أطيب التحيات.

وخلاصة القول: إن الأدب عماد الوطنية، ولا قيمة لوطن ليس فيه أدباء.

وإذا تحذلق متحذلق فادعى أن الأدباء لا يحسنون غير التغريد فوق أفنان الجمال، أجبناه قائلين بعزة وخُيلاء:

إن الجمال هو أعظم نعم الله في هذا الوجود، ولا يعيب التغني بالجمال غير مرضي الأذواق والقلوب... الأمم العظيمة هي التي تتغنى بالجمال، كما يصنع الإنجليز والألمان، وكما صنع العرب في شباب الزمان... فمن بدا له أن يغض من شعرائنا؛ لأنهم يتحدثون عن الجمال، فليبادر باستشارة أحد الأطباء.

***

بين الحب والحرب

كان الصحفي الكبير الأستاذ عبد الحليم الغمراوي سكرتير تحرير جريدة المصري، فطلبني تليفونيًا في الليلة التي أعلنت فيها الهدنة في الحرب الأخيرة ليقول: أسعفني بقصيدة ننشرها غدًا في «المصري» فقد اعتذر الشاعر علي محمود طه، ولم يبق أمامي غيرك، وستظهر جريدة الأهرام غدًا وفيها قصيدة للأستاذ علي الجارم، ونحن مع الأهرام في منافسة صحفية.

فقلت: إن الخبر وصل إليَّ قبل أن يصل إليك، وقد لمحته لمحًا قبل شهرين، وأنا في مكتب الأستاذ أنطون باشا الجُمَيِّل، فقد كان الجارم بك سمع أن موعد الهدنة قريب فنظم قصيدة عن الهدنة وأودعها عند رئيس تحرير الأهرام لتنشر في صباح يوم الهدنة، وليقال: إن الوحي نزل عليه بالليل!

***

ثم ... ثم ماذا؟

ثم امتطيت قطار الإسكندرية وأنا حزين؛ لأنظم القصيدة في المكان الذي اعتدى فيه الإنجليز على كرامة الإسكندرية يوم الاحتلال.

وصلتُ إلى الإسكندرية مع الليل، وهداني قلبي إلى المكان الحزين، وتذكرت أن الجيش البريطاني في مصر كان يقيم احتفالًا في كل سنة

بذكرى ضرب الإسكندرية، ولم ينته إلا بعد أن نهيته بمقال نشرته في جريدة البلاغ سنة ١٩٣٣.

***

ليت أيامي تعود!

ليت أيامي تعود!

أكاد أتذكر أنني دخلت الإسكندرية أول مرة في قطار الليل مع فريق من كرام المعتقلين، وأكاد أتذكر أيامي في الاعتقال، أكاد أتذكر أنني رفضت جميع الشروط التي عرضها رئيس المعسكر البريطاني، وهي ملخصة في كلمة وجيزة: هي أن أكون صديق بريطانيا العظمى.

فكان جوابي أن العظمة لله وحده.

ويشهد جميع من صاحبوني في مُعتقل «سيدي بشر» أنني كنت آخر من بقي في المعتقل.

ورأى الضباط الإنجليز أن من الحماقة أن يشغلوا أنفسهم بأسير له ضمير، فأطلقوا سراحي، والإنجليز لهم ضمائر في القليل من الأحايين!

***

خرجتُ وما أدري كيف خرجت.

كان يجب أن أمرَّ على محافظ الإسكندرية، وهو يومذاك صاحب السعادة حسن باشا عبد الرازق، شقيق الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق.

قال الباشا: أنا أتذكر أنني عرفتك قبل هذا اليوم.

فقلت: وأنا أيضًا أتذكر أنني عرفتك قبل هذا اليوم.

فقال الباشا: ما رأيك في الشيخ عبد المجيد اللبان؟

فقلت: من قال لا أدري فقد أجاب.

فقال الباشا: أنا أخرجته من المعتقل ولم يحفظ جميلي.

***

كان حسن باشا رجلًا أريحيّ الروح، وقد مات شهيدًا في سبيل حرية الرأي، قتله جماعة من الأشرار على باب جريدة السياسة، وكانت في المكان الذي تقوم فيه اليوم «دار الهلال».

قتله قاتلوه لأنه كان يناهض سعد باشا زغلول، فبكى عليه الدكتور طه حسين والأستاذ توفيق دياب بمقالات حرار.

ماذا أريد أن أقول؟

أقول: إني خرجت ظمآن إلى الحرية بعد أن قدم المحافظ تذكرة سفر من الإسكندرية إلى أشمون... والحرية في ذلك الوقت هي أن أزور الأستاذ محمد الهياوي في جريدة «الأمة» والأستاذ عبد القادر حمزة في جريدة «الأهالي».

ثم سافرت ولم أر البحر، فقد سمعت هديره واكتفيت بما سمعت، كالذي رأيتموه في قصيدة «دار المجد والوجد».

***

ثم دارت الأيام على غير ما أريد، فرأيتني بعد ثلاثين سنة أقف نائحًا على الإسكندرية وقد أزعجها الألمان والطليان بقنابل دمرت منها ما دمرتْ، ولكنها بفضل الله بقيت خالدة على الزمان.

كنت أفتش المدارس الأجنبية بالإسكندرية أيام الغارات، فلم أتردد لحظة في أداء الواجب، ولم أنكص على عقبيَّ كما نكص بعض المفتشين، ولم أخف كما خاف وزير المعارف واسمه «فلان».

***

في ظلال تلك الذكريات نظمت قصيدة «بين الحب والحرب» لتنشرها جريدة «المصري» وليقول الأستاذ عبد الحليم الغمراوي ما نصُّه بالحرف:

«أهدى إلينا الكاتب الألمعي، والشاعر العربي، الدكتور زكي مبارك قصيدة رائعة، ضمَّت إلى قوة المعنى دقة المبْنَى، وبذلك جمعت فأوعت، ونحن نزفها هدية إلى القراء».

***

إن القصيدة التي أعجب بها الأستاذ عبد الحليم الغمراوي لم تعجب الأستاذ محمد فهمي عبد اللطيف، فكتب في مجلة الصباح كلمة «لطيفة» قال فيها: إنه لم يفهم شيئًا من القصيدة، ولعل ذلك يرجع إلى أن اسمه «فهمي».

أمَّا الأستاذ عباس الأسواني -وأنا أتنبأ له بمستقبل جميل- فقد أعجبته الأبيات الأولى، ولم يفهم ما أريد بعد تلك الأبيات الجميلات... فماذا أريد؟

في القصيدة تلميح إلى ضرب الإسكندرية بالمدافع ليلة الاحتلال، وفي «التلميح» ما يغْني عن التصريح، وقد أخفيت مرادي عن الأستاذ الغمراوي، ولو أنني أفصحت له عما أريد لرفض نشر القصيدة؛ لأن سيف الأحكام العرفية كان يتوعد أحرار الرجال مع أنه سيف مفلول، وما كنت أريد أن تغلق جريدة «المصري» من أجل هذه القصيدة الفريدة.

أزرق العين...

من هو أزرق العين؟

غاب هذا المعنى عن فريق من القراء، فليعرفوا اليوم أنه «الإنجليزي» الذي أدبتُه تأديبًا فترك الاحتفال بذكرى ضرب الإسكندرية الغالية.

***

جمال الجمال:

بعد ظهور القصيدة لقيني أخي في الأدب وفي الحب الأستاذ أحمد الصاوي محمد، وفي معيتة الأستاذ توفيق الحكيم فقال: أعجبني قولك: «يا جمال الجمال».

أحمد الصاوي محمد ...!!

من هو هذا الصاوي؟

أكاد أتوهم أننا كنا غريبين في باريس.

وأكاد أتوهم أنه كان تلميذي في اللغة الفرنسية يوم كان يقيم بحارة «الصالحية» ... Le passé ést mort الماضي مات...

ولكنه أحيا من الحياة، ومن حياة الحياة، إن الصاوي هو الكاتب الوحيد الذي لم يكتب حرفًا واحدًا في مناوشتي، مع أنني هجمت عليه مرة أو مرتين في جريدة البلاغ قبل سنين قصار أو طوال.

إن الماضي مات، ومات، ثم مات!

ولكن شاعرًا لم يقرأ هذه القصيدة وهو الأستاذ كامل الشناوي واسمه الصحيح مصطفى كامل، كأنه وُلد يوم وفاة الزعيم الوطني مصطفى كامل.

رأيت هذا الفتى أول مرة في بيت الأستاذ زكي طليمات، وهما يأكلان الفسيخ متربعين على البساط، فرفضت الدعوة لأنني كنت قرأت كتابًا بعنوان «ألف سيخ في عين من أحل الفسيخ».

وما كنت أنتظر أن يصير هذان الفتيان إلى ما صارا إليه، فالأستاذ كامل الشناوي صار من كرام الكاتبين، والأستاذ زكي طليمات صار عميد المعهد العالي لفن التمثيل.

في هذه اللحظة -وأنا أكتب مقدمة القصيدة- يهتف الهتاف لأسمع: أنا محمد الشافعي البنا وسأحضر إليك ومعي طعام وشراب.

تعال: يا شافعي، تعال.

حضر الشافعي ومعه طعام وشراب، كأنه يتوهم أنني جوعان وظمآن على نحو ما كنت في أيام الاعتقال. أنا أعز هذا الأديب المفضال وهو يجمع بين مزيتين عظيمتين: صباحة الوجه، وطهارة الوجدان.

إنه يستريح إليَّ بصورة عجيبة، ولا يطيب له الوقت إلا إن كان معي، ولعله يريد أن يتذكر شقاءنا في غياهب الاعتقال.

والمودة التي بيني وبينه لها أصل أصيل، فقد كنا في أيام الاعتقال على مذهبين مختلفين، كان هو يتحزب للوفد المصري، وكنت أنا أتشيع للحزب الوطني، ولكننا لم ندخل في أي جدال سياسي، فزادت مودتنا صفاء إلى صفاء.

***

دخلت إسكندرية أول مرة وأنا «أسير حرب» وهو اللقب الذي خلعه عليَّ الإنجليز، والورقة التي تؤيد ذلك تحت يدي وهي البرهان على ما أراد الإنجليز أن يصنعوه في شراء ضميري، ولم أسمح لأحد بالتفكير في شراء ضميري، فالحياة أهون من أن تباع فيها ضمائر الرجال.

أكتفي بهذا التمهيد في تهيئة الجو الذي يحيط بالقصيدة، وإنها لقصيدةٌ قبستها من نور القلب ونار الفؤاد.

***

ما على الغادرين نسكب دمعًا ... إن فُجعنا بصدِّهم والفراقِ
غَرَّهم عطفُنا عليهم فظنُّوا ... أن هجرانهم مَريرُ المذاق
لا تعودوا، ولا تمنُّوا علينا ... بالذي تَمنحون يوم التلاقي
سوف نَصحو، وكلُ نشوة حبٍّ ... سوف تُودِي بها الليالي البواقي

***

حبُّكم أنجبته أيام حربٍ ... صبحُها في سناه ليلٌ بهيمُ
لا يصون الحليمُ فيها نُهاهُ ... ساحةُ الحرب ليس فيها حليم
حبُّكم صيغَ من أمانٍ وخوفٍ ... فهو نارٌ يهفو عليها النسيم
حبكم خِدعة السلام أشاعوا ... قبلَ يومين أنها «تسليم»

***

كان ما كان وانقضتْ صبواتٌ ... ثائراتٌ في إثرها صَبَواتُ
كان عهد الهوى وثيقًا فأودى ... بوثيق الوفاء هذا الشَّتاتُ
قد سكبنا الدمع العزيز عليكم ... وعلى القبر تُسكب العبرات
أدمُعي إن سكبتها في غرامٍ ... فهي في شِرْعة الهوى صلوات

***

أتروني عرفت ما كان منكم ... وقصيدي في عتبكم تلميحُ
إن يومي بذلك «الثغر» يومٌ ... أنا فيه مقاتلٌ وجريح
مَطَرٌ هاطلٌ وبأسٌ شديدٌ ... وقتالٌ ومَدمَعٌ مسفوح

لن تروني أموت، ما مات قلبٌ صادقٌ في الهوى، ولا مات روح

***

كَذِبٌ ما سمعتَ من صِدق عهدي ليس للثائر المجرَّح عهدُ
إن أكن في هواك أخلفتُ وعدًا فلقد ضاع فيك وعدٌ ووعد
خاتلٌ أنت، فاحترس من عقابي كل خَتل له عقابٌ ورَدُّ
مِحنتي فيك، والجروحُ قصاصٌ لم تُسدَّدْ ديونها السُّود بعدُ

***

ليلة الثغر ليلةٌ كَرَبَتْني وليالي الجوى عناءٌ وكرب
كلما قلتُ غاب عني دُجاها أجَّ من طيفها قتالٌ وضربُ
أعينُ الغيد لا تروم سلامًا إن تسليمها المهذَّب حربُ
باطلٌ باطلٌ حديثُ أناسٍ زعموا أن شِرعة الكون حُبُّ

***

أيُّ عهدٍ تَرَى وعندك أني في حياة الغرام والوَجْدِ طِفلُ
ليلةُ «الثغر» أفقدتني رشادي إن بعضَ الجنون في الحب عَقْلُ
لن تراني إلا غريمًا أثيمًا وَثْبةُ في هواك خبلٌ وقتل
لا تحاولْ ضلالةً في غرامي ليس ليَ في الضلال والمكر مِثْلُ

***

أُعلِنَ الصُّلحُ واطمأنتْ سيوفٌ ظامئاتٌ إلى حِمَى الأغمادِ
واستطار الهوى فأعلن حربًا بين سُود العيون والأكباد
حَرْبُنا حلم تقف لُمَيحة طرفٍ من قديم العصور والآباد
كل حربٍ لها بشائر صلحٍ غير حرب سعيرها في فؤادي

أنتَ، من أنت؟ لا أسميك رفقًا ... بك يا سُهْد أعين الرقباءِ
أنت في خاطري خيالٌ لطيفٌ ... كالخيال المكنون في الصهباء
لا تَخَلْ أنني جَفوتك زهدًا ... في عذابي ولوعتي وعنائي
إنني قد كتمت حبك خوفًا ... من فُضُول العذَّال والسفهاء

***

أُعلِنَ الصلحُ بين قومٍ وقومٍ ... أين صُلحُ العيون صلحُ القلوبِ؟
دارت الحربُ بين قلبي وحبي ... إن حرب الهوى أمضُّ الحروب
كل خَطبٍ يهون إلا خداعًا ... يصطليه متيَّمٌ من حبيبِ
أنا أذنبتُ في اشتياقي إليكم ... إن صدق الغرام بعض ذُنُوبي

***

أقبل الصلحُ، هكذا قال ناسٌ ... يُلبسون الغروبَ ثوب الشروقِ
صلحُهم خاتِلٌ ضميرًا وعينًا ... كاشتمال العدو ثوب الصديقِ
إن يخونوا، فما خيانةُ روح ... سقطت سِقْطَة الهوى في طريقي
مكرُهم في هواي شارةُ حربٍ ... تُؤذِن الروحَ بالتهاب الحريق

***

أنت، من أنت؟ والسياسة غيبٌ ... هي رجمُ الظنون بعد الظنون
إنهم صوَّرُوك نُورَ ضميري ... إنهم صوَّروك نار شجوني
أين ألقاك؟ أين ..؟ لا أين، إني ... حائرُ الروح في شِعاب الحنين
حبُّنا مات فابكِ أنت عليه ... غاض دمعي وغاب عني أنيني

***

قال قومٌ وقلتَ أنت سلامًا ... فعليك تحيتي وسلامي

إنَّ تـــسليمكم علـــيَّ بـــشيرٌ بالجميـــل النـــضير مـــن أيـــامي
ليت ما قد سمعت يؤنس رُوحي ويـــروِّي الظمـــآن مـــن أحلامـــي
ليتنـــي أغتـــدي وأمـــري أمـــري فـــي ودادي وفـــي مَريـــر خـــصامي

***

يـا جمـالَ الجمـالِ، هـذا رقيـبٌ أزرقُ العـين؛ يـا جمـال الجمـالِ
لا تُـصدِّق كلامـــه فـــي اتهـــامي إنـــه يمتـــري ضـــروع الخبـــال
أمْـرُ هـــذا الرقيـــب يلغيـــه أمـــرٌ منـــك يـــا فتنـــةَ العـــصور الطـــوال
لـــم أجـــد قبـــل محنتـــي فيـــك ليثًـــا يأخـــذ الأمـــر عـــن عيـــون الغـــزال

***

مـــرأةُ الحـــرب كيـــدُها أبـــديُّ مـــن هنـــا قيـــل إنهـــا هيجـــاءُ
مـــرأة الحـــرب أخطُبـــوطٌ عنيـــفٌ كـــل أســـنان ثغرهـــا هوجـــاء
لـــم أجـــد مـــرأة حميـــدًا جناهـــا فـــي ســـبيل الفنـــاء هـــذي النـــساء
حُـــرَّةٌ تلـــك؟ إن ســـمعتم فقولـــوا حـــرةٌ يعتلـــي عليهـــا الإمـــاء

***

أقْبـلَ الـصلحُ أيُّ صـلحٍ؟ أجبنـي أبهـذا الوجـود يُعقـدُ صُـلح؟
أنـا، والحـب يغتلـي فـي فـؤادي مـن عتـابي عليـك وَخـزٌ وجَـرحُ
لـست أنسى أمانيًـا فيـك ضـاعت لا تُصدِّق إن قيل في الحب صفح
غـافر الـذنب لـيس يغفـر ذنبًـا لحبيـــب جنـــاه كيـــدٌ وشُـــحُّ

***

أقْبَـلَ الـصلح، إنهـم سـطَّروهُ فـي سـجلٍّ مُـرَقَّم الـصفحاتِ
وتنـــادوا بـــأن عهـــدًا جديـــدًا يـــأمر النـــاس بالـــذي هـــو آت

شبحُ الحرب لن يعود إليكم فتناسوا ما كان من هَنَوات
واذكروا أنكم غدوتم جميعًا في ظلال الخيرات والثمرات

***

شبحُ الحرب لن يعود؟ فما لي ألمح الحرب فوق كل مكان
آسِر شامتٌ يقهقهُ جهْرًا وأسيرٌ يغتابُ صَرفَ الزمان
أمرُكم للهوى كما صار أمري إن خوفي مُرُّ الجنَى من أماني
أنا أسرفتُ في الرجاء فأمسى خَيْبُ هذا الرجاء إحدى الأماني

***

يا جمالَ الجمالِ أنت قصيدٌ من رحيق الصبا وهذا قصيدُ
لا تقل بالذي يقال حديثًا: «ليس في الكون سيِّدٌ ومسود»
كل عصرٍ به ظلامٌ وصبحٌ وظباءٌ تسطو عليها أسود
لا تحاول فِرارةً من نِبالي أنت أشهى الصُّيود مما أصيد

***

أقبل الصلحُ؟ ذاك قولٌ عجيبٌ لم «يؤشِّر» عليه ذاك الرقيبُ
قد شمتنا بكم، شمتنا، فتوبوا وإلى مشرع الندامة ثوبوا
زملاءٌ وهم لنا رقباءٌ بأسهم في قتالنا مرهوب
يلعنُ الله حقبةً من زمان عاش فيها الأديب وهو غريب

***

قلمي، والحياةُ جَزْرٌ ومَدٌّ ومساءٌ يمضي فيأتي صباحُ
زَمَنُ الحرب ليس عهد كفاحٍ في عهود السلام يُرجى الكفاح
زمنُ الحرب أمرهُ لأناسٍ هم كباشٌ جهادُهنَّ نطاحُ

قلمـي، أنـت مِـشرط وزمـاني طِبُّـه مـن جـواه هـذا الـسلاح

***

يـا فـؤادي شـهدتَ حـربين فـاقنعْ بالـذي قـد شـهدتَه مـن خُطـوبِ
وتعـال اسـتمع لآهـات روحٍ هـو مـن صـدق حبـه فـي كـروب
إن عيـشي تغتالـه خطـراتٌ هـي رَمـي العيـون حـبَّ القلـوب
أنـا يـا قلـب لا أبـالي زمانًـا ضـاع حظِّـي منـه وضـاع نـصيبي

١٩ مايو سنة ١٩٤٥